

حركة الاستعراب وأبعاد الاستثمار في اللغة العربية

- قراءة في تجارب عالمية رائدة -

إعداد

الأستاذة/ نوال ماضي

جامعة جيجل - الجزائر.

ورقة بحثية مقدّمة للمشاركة في المؤتمر

الدولي الثالث للغة العربية - الاستثمار في اللغة العربية ومستقبلها الوطني والعربي والدولي

في دبي من 8-11 رجب 1435هـ - 7-10 مايو 2014

حركة الاستعراب وأبعاد الاستثمار في اللغة العربية

- قراءة في تجارب عالمية رائدة -

مقدمة:

سجلت اللغة العربية حضوراً واضحاً وإنجازات ملموسة في مجتمعات غير عربية، ويظهر ذلك جلياً من خلال عدد من المعالم الحضارية والثقافية التي أفرزتها الثقافة العربية في حياة الأمم الأخرى ومجتمعاتهم، فقد كان لقيام الدولة الإسلامية في أوروبا مثلاً في قرون خلت أثره الفاعل في إحياء الثقافة العربية في تراثها الحضاري ، و مكّن الإسلام من انتشار اللغة العربية والسعي نحو تعلمها لمحاولة قراءة القرآن الكريم والسنة النبوية. وأولت بدورها مختلف الدول في العالمين الغربي والشرقي على السواء اهتماماً باللغة العربية ، فخصصت مبالغ طائلة لنشرها ، وأثرت العربية في اللغات المحلية حيث أصبحت اللغات تكتب بألفاظ عربية كما هي الحال في الأندلس آنذاك. ويعدّ ظهور حركات الاستشراف والاستعراب و الاستعراب - على اختلاف مراحلها التاريخية والأهداف التي تسعى لتحقيقها - عاملاً فاعلاً في النهوض باللغة العربية.

ولعل الاستعراب بوصفه ظاهرة حضارية رافقت المد الإسلامي لفترة ممتدة في التاريخ العربي والعالمي، أكثر هذه الحركات خدمة للغة العربية بحكم المساحة الجغرافية الشاسعة التي يكتسحها الإسلام في العالم أولاً، وبعدها عن دوائر الاستعمار الغربي مما يمكن الجزم بنزاتها في خدمة اللغة العربية ثانياً ، وتركيزها الأول على توجيه العناية بالمنجزات المدونة باللغة العربية ثالثاً.

ويشهد العصر الحالي امتداداً لهذه الحركة وانتشارها خاصة مع الدفع الراهن لعجلة الاقتصاد والتطور العلمي وانفتاح العرب على مجالات تعاون وشراكة في مجالات شتى ، وبالتالي مساهمة اللغة العربية في التقدّم مساهمة لم تعد تقتصر على الفن الإبداع والأدب. ولا أدلّ على ذلك من التوجه الشرقي للاقتصاد العربي الذي انفتح على سياسات العملاق النائم (الصين) وكذا المنجزات التقنية اليابانية ، فتطلّب ذلك من الآسيويين ضرورة إنشاء مؤسسات وهيئات حكومية وقنوات فضائية تمجّد للغة العربية وتفتح آفاقاً لها . كما تطلّع روسيا عبر الاستعراب إلى إحياء العلم العربي القديم واسترجاع الكنوز التي تضمها المخطوطات العربية المتواجدة بمراكز ثقافية روسية، والتي ظلت إلى وقت غير بعيد رهينة الترجمة اللاتينية. وأما في اسبانيا، موطن الاستعراب الأول الذي وجد أرضاً محلية خصبة للنمو والترعرع، فلا تغيب عن ساحته جهود فردية و مؤسساتية عالمية و ضاربة في التاريخ العميق للدولة ولما

كان هذا البحث يركّز على المبادرات الحديثة الرائدة، فنذكر أسماء مثل ميكيل آسين بلاثيوس و إميليو غارثيا غوميث و خوان بيرنيت خينيس.

نظرا لأهمية الموضوع المطروح، تأتي هذه الورقة البحثية- بعد الإحالة التاريخية للجذور الأولى لحركة الاستعراب- لتقصي روافد الاستثمار اللغوي للغة العربية عبر الاستعراب من خلال مقاربة ابستمولوجية للتجارب الطلائعية غير العربية السالفة الذكر، وكذا الوقوف على أهم الآليات و الاستراتيجيات المتبعة، ومن ثم الوصول إلى الأبعاد التي ترسمها هذه الحركة للاستثمار و من ثم مواكبة الركب العالمي، ولم لا كذلك إعادة المجد الحضاري العربي.

1/ في المعنى اللغوي للاستعراب:

تطورت في الغرب الدراسات العلمية المهمة بالعبء العلمي والثقافي والحضاري (للآخر)، وكان لا بد لهذا الاهتمام من مقتضيات منهجية علمية وجب سلوكها من أجل صبغ الأعمال بالعلمية، ومن بينها تحديد مفهوم علم يرتبط بالآخرين في رصد ثقافتهم وسلوكهم وأخلاقهم وتقاليدهم وأذواقهم الفنية في مختلف الفنون والآداب والعلوم الإنسانية، كما كان من بينها ما يصطلح عليه علمياً في تاريخ العلوم الإنسانية المتعلقة بالحضارة الإسلامية العربية بالأندلس ب(الاستعراب الإسباني).
والمستعرب⁽¹⁾ في كلام العرب من: عرب، وهو اسم فاعل. من استعرب: وهو كل أجنبي عالم بآداب العرب ولغتهم وعلومهم وتاريخهم ونحوها، ومن اعتنى من غير العرب بآدابهم وحضارتهم وثقافتهم، ويقال: (مستشرق/يهودي مستعرب) ومنه العرب المستعربة: الدخلاء فيهم الذين تكلموا بلسان إسماعيل عليه السلام.

وعرب⁽²⁾ : استعرب، يستعرب، استعرباً، فهو مستعرب: واستعرب الشخص أي جعل نفسه من العرب. وصار دخيلاً بين العرب. ومستعرب (جمعه: عون ووات) فاعل من استعرب وصار مستعرباً: الأجنبي الذي تعلم اللغة العربية وآدابها. فنقول: المستعرب (فلان): أي العالم المختص بآداب العرب وعلومهم وثقافتهم وتاريخهم.

والاستعراب استعمال قديم. فقد استعمله ابن الفريّة، وهو من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة. إذ قال لما سأله الحجاج عن أهل البحرين (نبط استعربوا)؛ قال: (فأهل عمان)؛ قال: (عرب استنبطوا)، وذلك يكون إما لغة أو انتساباً أو لعلاقة أخرى. فالكلمة أصيلة في منطق العرب وتداولهم

¹ . الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، 687/2.

² . للاستزادة ينظر مادة (ع ر ب) في المعاجم والقواميس الآتية :

معجم معاني كلام العرب/ج4(مادة ع ي). تاج العروس، القاموس المحيط، ؛ والمصباح المنير.

اللغوي ذي الدلالة الاجتماعية مما تقدم، ومن كلام ذي النون المصري إذ يقول: (نعوذ بالله من النبطي إذا استعرب). فجعل الظاهرة من قبيل التطبع الذي في الغالب ما يمسخ طبيعة الأشياء في ماهيتها وتكوينها، ومن هذا القبيل المفاهيم والسلوكيات النفسية والاتجاهات الثقافية في دراسة ثقافة الآخر وكشفه الاجتماعي.

ولعل من قبيل هذا، مصطلح الاستعراب، والمستعرب بدلالاتهما اللغوية وتمثله الاجتماعي في السياق المعرفي والحضاري. وما يرصد حقيقة هذا المفهوم المرتبط بموضوع هذه الدراسة هو ما نجده عند ابن منظور نقلاً عن الليث تعريفه: والعرب المستعربة هم الذين دخلوا فيهم فاستعربوا. قال الأزهري: المستعربة عندي قوم من العجم دخلوا في العرب فتكلموا بلسانهم وحكوا هيئاتهم وليسوا بصرحاء فيهم.⁽¹⁾

2/ في الحضور التاريخي لحركة الاستعراب:

إن تناول موضوع العلاقات والصلات الحضارية والتاريخية التي ساهمت في ظهور حركات من مثل الاستعراب والاستشراق وحتى الاستعراب بين العرب والمسلمين من جهة و الأمم الأخرى من جهة ثانية متشعب في كثير من النواحي، حيث لا يتسم التفاعل فيه إلى إيقاع منتظم، مما يتطلب البحث فيه الرؤية في الاستنتاج و الدقة في المتابعة التاريخية الموثقة والموثوقة، وذلك خارج التنغي بالأمجاد، إنما لابد أن من الانطلاق من حقائق و سجلات تاريخية موضوعية هدفها إمطة اللثام عن طبيعة العلاقات المتشابكة و المؤثرات المتبادلة بين الحضارات و الثقافات في سياقات تاريخية شهدت الكثير من الانجازات والانتصارات، كما شهدت هزائم وانكسارات أدت إلى تبادل المواقع والمؤثرات، وتنوع الأهداف والغايات.

من هنا يجب التمييز بين الاستعراب والاستشراق والاستعراب انطلاقاً من الظروف التي أدت إلى نشأتها الأولى، والمعاني المنوطة بتحقيق المصطلحات التي لزمها ، فالاستعراب الذي ظهر إبان ازدهار الحضارة العربية في الأندلس مثلاً ، وبالتحديد في الفترة من (1100 - 1500) ؛ وأقبل من خلاله كثير من الأندلسيين على تعلم اللغة العربية وآدابها، والولع بكل ما هو عربي لاسيما قراءة الشعر العربي والاهتمام بأعلامه دراسة وتحقيقاً، ومن بينهم (إميليو غارسيا غومث) المراسل في مجامع اللغة العربية في القاهرة وبغداد ودمشق، يتطّلع إلى الشرق على أساس أن أبرز مكونات الشخصية الإسبانية ظلت مرجعياتها الحضارية عربية إسلامية حتى القرن الخامس عشر.⁽²⁾ وقد شكل ماضي إسبانيا بوجهها العربي عقدة عند المسيحية الإسبانية طوال قرون، لكن ما فتح عيون الأسبان على حقيقة الشرخ الكبير في تاريخهم الحضاري هو رؤية أوروبا تنهض من سباتها الطويل لتبدأ في صياغة حضارة متقدمة، فما كان من بعض

¹ . انظر: ابن منظور. لسان العرب. مادة (عرب)

² . زكريا زكريا هاشم: فضل الحضارة الإسلامية العربية على العالم. دار النهضة مصر 1970. ص50 وما بعدها.

الأكاديميين المتتورين إلا أن أعادوا النظر بتاريخهم الذي قام طوال قرون على نفي التأثير الحضاري للمسلمين، والادعاء أن وجود العرب في بلادهم لم يكن إلا مرحلة انقضت ويجب نسيانها، بل حذفها تماماً من الذاكرة الجمعية للإسبان حتى تستقيم الشخصية الإسبانية اللاتينية. فقام أميركو كاسترو في القرن التاسع عشر بمواجهة الإسبان بحقيقة تكوينهم الحضاري القائم على التفاعل. كما شرعت طائفة من المفكرين الإسبان المتحررين تعيد النظر في تاريخ إسبانيا على نحو أكثر إنصافاً، حيث انطلقت الجهود من التقاء الشرق والغرب في نقطة تفاعلت فيها البشرية دون نظر بعضهم إلى التوجهات السياسية أو الدينية للآخر، ودون إعطاء أهمية للون أو الجنس أو العرق. ما دفع إلى نشوء حضارة عريقة تبقى مثلاً على الرقي والتسامح والسمو.⁽¹⁾

يستدعي الجانب العلمي والمنهجي للبحث التركيز على الفكرة الأساسية التي يعالجها، وعملاً بذلك ستركز الورقة البحثية على إضاءة الجوانب الايجابية في هذه الحركة والتي تخدم اللغة العربية في مستويات عالية من الاستثمار، ومن ثم سيكون تجاوز التفصيل التاريخي والسياقي لظهورها أمراً جبرياً، وإنما لا يمكن بأي حال من الأحوال تجاوز الفروق التي صنعها الاستعراب بحد ذاته في مختلف الثقافات رغم أنه في أبسط تعاريفه الحديثة المتطورة هو طلب اللغة العربية و علومها والاهتمام بما أنجز باللغة العربية، أي دراسة اللغة العربية بنقلها من مظهرها المادي إلى وعائها الفكري، و ينطبق هذا على المسلمين من غير العرب، وغير العرب الذين ينتمون إلى ديانات أخرى غير الإسلام، ولم تعد حكراً على المبادرات الأوروبية، خاصة مع تنامي الحركات المنادية بتجاوز التطرف والهيمنة الغربية، ودعوتها لحوار الحضارات. كما ساهم في ذلك ما يسمى حالياً بموت الايدولوجيا وظهور مفاهيم الهويات الإقليمية المطالبة بالحقوق الإنسانية.

إنه من الضروري الإشارة إلى أن حركة الاستعراب تسجل بؤناً شاسعاً في الدوافع والأهداف وعوامل قيامها من منطقة إلى أخرى، فالاستعراب الآسيوي تكتسيه خصوصيات تميزه عن الأوروبي الذي نشأ نشأة استعمارية يسعى في غالبه لمحو الوجود الإسلامي باعتباره العدو الأول الذي يشكل خطراً على المركزية الغربية، إذ ترجع هذه الخصوصية إلى حقيقة الوعي الكامل بالحضارة الإسلامية الذي قام عليه، وعدم ارتباطه بالعداء والاعتلاء الذين تمليهما المركزية الغربية.

¹. نوفل عبد الرزاق. (المسلمون والعلم الحديث). بيروت. 1973. ص 69.

ومن هنا تكمن أهمية الطرح المعاصر للاستعراب ، الذي اتخذ - أمام هذا التغيير- طابعا علميا بروح حضارية ، يهدف إلى طلب التثاقف وتبادل المصالح في إطار الحوار الحضاري للشعوب والأمم، فانتشر الاهتمام باللغة العربية في هذا الإطار أولا ، ونظرا للمكانة التي تكتسيها هذه اللغة ثانيا، انتشارا تفرضه المصالح الاقتصادية بالدرجة الأولى، رغم أن أهم حدث تاريخي تعزو إليه تفشي ظاهرة الاهتمام باللغة العربية هو حدث سياسي جسده هجمات سبتمبر 2001 م. لكن الأهداف اختلفت وتنوعت، وما يهمننا في هذا المقام هي تلك الجهود المبذولة والتجارب في المجال من طرف الأقطاب التي تبدي مساهمة فعالة في إثراء اللغة والثقافة العربيين.

3/ الاستعراب والاستثمار اللغوي للعربية:

تعدّ اللغة عنصراً من عناصر الاتصال الأساسية الذي يعتمد عليه التواصل الاجتماعي بين الأفراد والمجتمعات على اختلاف هويتها وانتمائها الحضاري. فالتعامل مع الآخر يستند إلى المادة الأولى المشكلة للحضارة الواحدة أو على الأقل هي الجسر الأول الذي من خلاله يتمكن أبناء الثقافة الواحدة من فتح أبواب التبادل الثقافي مع الثقافة المختلفة. وبناء على بدايات التلاقح بين الحضارات المسجلة في التاريخ البشري للإنسان فإن أول مجالات تفاعلت فيها اللغة مع البيئة الأجنبية قد فرضه كلا من النشاط الثقافي والنشاط الاقتصادي، خاصة هذا الأخير الذي يعد مهادا أساسيا في بناء الحضارة عبر التجارة. ونستحضر المقولة المشهورة للمستشار الألماني ويلي برا ندت: " إذا أردتُ أن أبيعك بضاعتي، يجب أن أتحدث بلغتك، وإذا أردتُ أن تبيعني بضاعتك، فعليك أن تتحدث الألمانية". ويرجع هذا الدور الفعال للغة كونها الأداة الأساسية للتعامل الإنساني، فتحمل كل الوظائف الممكنة لذلك: الوظيفة الفكرية، والثقافية والسياسية والاقتصادية، ولعلّ ذلك ما يفسر اتجاه العالم المتقدم كلّهُ إلى تعظيم العائد الاقتصادي لاستخدام اللّغة الأم (الانجليزية) والسعي لنشرها بشكلها الاقتصادي في مختلف أنحاء العالم ، ولاسيما بعد أن أثبتت نظرية النمو الجديدة أنّ الاستثمار في تعليم اللغة الأصلية في المجالات التكنولوجية؛ يعد استثماراً مثالياً يضمن الفوائد الكبيرة كلما أحسنت المؤسسات التعليمية والثقافية إدارته. و يمكن للغة العربية شأنها شأن اللغات الحضارية الحديثة، تحسين الاقتصاد من خلال استثمارها في مجالات غير التعليم والتربية.

لقد نشأت اللغة العربية وترعرعت بين أحضان التجارة ، وهي الحرفة الرئيسة - بعد الرعي - التي كان العرب يلتصقون بها أسباب الرزق ، وكان لها أثر بالغ في مضاعفة أغراض اللغة العربية ، وتنمية ثروتها اللفظية والدلالية ، من خلال التعاملات التجارية التي كانت تجرى سواء بين القبائل في أرجاء الجزيرة العربية ، أو عن طريق احتكاكهم بالشعوب المجاورة لهم في قوافل رحلاتهم التجارية الموسمية ومنها رحلتنا الشتاء والصيف . واللغة العربية غنية بالألفاظ الدالة على المال مما يدل على توسع العرب

في المسائل الاقتصادية ، حيث نجد لكل منها معنى من المعاني الاقتصادية التي ترجع إلى الاستثمار ، منها : **التلاد** (المال الموروث) و**الركاز** (المال المدفون) ، و**الضمار** (المال لا يرجى) ، و**الطارف** (المال المستحدث) ، و**التالد** (المال القديم) ، ونحو ذلك من أسماء النقود وأنواعها من الذهب والفضة (1) . كما كانت للعرب أسواق يعقدونها ، لا بغرض التجارة وتبايع السلع وحدها بل كانت محفلا تعرض فيه أيضا فنون القول ، وتطرح القضايا والموضوعات الأدبية واللغوية للتناقش والتباحث ، على غرار ما يحدث في بعض المنتديات والصالونات الثقافية المعاصرة ، ويتسابق أهل اللغة من ثم في عرض حصيلتهم اللغوية والبلاغية – شعرا ونثرا – على النقاد والجمهور . وكانت هذه الأسواق تستغرق أشهر العام بصورة دورية ومنتظمة ، فيعقد سوق "دومة الجندل" في ربيع الأول ، وسوق " هجر " في ربيع الآخر ، وسوق " عمان " في جمادى الأولى ، وسوق " المشفر " في جمادى الآخرة ، وسوق " صحار " في رجب ، وسوق " الشحر " في شعبان وسوق **صنعاء** في النصف الثاني من رمضان وسوق " عكاظ " – وكانت أكبر أسواق العرب وأجلها شأنًا – في ذي القعدة ، وسوقا "ذي المجاز، ومجنة" قرب أيام موسم الحج ، في ذي الحجة ، وسوق " حجر " في المحرم (2) .

لقد استخدمت اللغة العربية إذن في ترويج الثقافة والتجارة العربية، فإذا اطلع المستعرب على هذه الحقيقة زادت لديه الرغبة في الغور في العربية وعلومها ، وهذا ماكان في عصر الحضارة العربية في أوروبا، مما أسهم في نشر اللغة العربية، باعتبارها لغة الريادة؛ يقول الرحالة **ابن حوقل** أن اللغة العربية كانت مستعملة في الأسواق التجارية الهندية، كما كانت لغة مفضلة عند بعض الخاصة، أما العوام فقد كانوا ينطقون بلغتهم المحلية في حياتهم العامة، مما يدل على قيمة العربية، ومكانتها في المجتمع . لقد امتد إلى يومنا هذا التأثير من خلال الدراسات الاستعرابية الرائدة في الساحة الأجنبية. لكن : هل اقتصر هذا الاستثمار المصاحب للاستعراب على المستوى غير العربي فقط على ما اقتصر عليه سابقا؟

في الحقيقة عرف الاستعراب في بداياته اشتغال رواده على حركات التقويم و التوثيق والترجمة والكتابة عن ثقافة وحضارة اللغة العربية، ومع التوجهات المعاصرة التي خلقت مجالات التفاعل، امتد الاهتمام باللغة العربية إلى نوع آخر من التجسيد، يعتمد التقنية والتكنولوجيا متماشيا مع السياقات العالمية الجديدة، فتوسعت بذلك مجالات الاستعراب- إذا تناولناه بمفهوم البحث في اللغة العربية وعلومها وتمثلها على الصعيد الأجنبي - لتخرج إلى مجالات التعليم (تعليم العربية وعلومها) ومجال الثقافة والسياسة والإعلام وغيرها. يجمع الاستعراب بين العلمي والاستثماري للغة العربية، وتتجسد معاني الاستثمار التي

1. جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، مراجعة الدكتور شوقي ضيف ، دار الهلال ، الجزء الأول ، ص 31.

2. محمود شكري الألويسي . بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، الطبعة الثانية ، 1924م ، الجزء الأول ، ص 264 ، وانظر لغة الإدارة : عبد السميع المرادي ، مرجع سابق ، ص 14 .

يحققها الاستعراب على مستويات تتوزع في مظاهر معينة (خاصة في الزيادة الملحوظة لعدد الناطقين بغيرها) ومجالات قائمة. واستخدم الاستعراب في مجمله آليات مختلفة شملت تداول اللغة العربية والقيام بالرحلات العلمية إلى مواطنها العريقة في الخريطة العربية. ويمكن التمثيل ببعض التجارب الرائدة في الاستعراب بصوره الجديدة كما يلي:

أ/ التعليم العالي و الإعلام في الصين:

تعود العلاقات العربية - الصينية إلى ما قبل ظهور الإسلام، حيث كان التجار العرب، هم أول من بادر إلى إنشاء هذه العلاقة، وبنائها بناءً شبه محكم، لأجل إنجاح تجارتهم عبر البحار، وكسب ثقة تجار الأسواق الصينية، وبدورهم كان التجار الصينيون يتركون موانئهم أيضاً، لتصل سفنهم التجارية إلى موانئ البحار العربية، محملةً بالخزف الصيني، والقيشاني، والحريز، خيوطاً ونسيجاً، وكذلك بالفضة والذهب.. علاوة على صنوف كثيرة من الأدوية الصينية، العشبية منها، وغير العشبية.. الخ. لتعود إلى بلادها، محملةً بالخيول العربية، واللبن، والبخور العربي والإفريقي، والعاج، والتمور، وبعض المنسوجات القطنية، وغيرها من البضائع، التي تفتقدها الأسواق الصينية. وقد ورد في (كتاب تانغ القديم) في جزئه الرابع، و "سجل التاريخ" الصيني أن دولة داشي (التي يشار بها عند الصينيين قديماً إلى بلاد العرب) بدأت بإرسال مبعوث إلى الصين منذ عصر أسرة تانغ الملكية، في سنة 651 م. مايقابل سنة 31 هجرية، في عصر عثمان بن عفان، ثالث الخلفاء الراشدين. وتوالت بعدها حركة المبعوثين إلى أسرة تانغ الملكية الصينية مرات عديدة، فخلال 148 سنة ابتداء من سنة 651 إلى سنة 798 الميلادية، سجّلت المصادر التاريخية أن العرب أوفدوا نحو 39 مبعوثاً إلى أسرة تانغ الملكية⁽¹⁾، واستمر مثل هذا الاتصال في أسرة سونغ الملكية الصينية. وبناء على ما توصل إليه الأستاذ الباحث باي شوي في دراسة له فإن دولة داشي قد أوفدت 49 مبعوثاً إلى الصين بمعدل مبعوث واحد كل أربع سنوات خلال 200 سنة من السنة الأولى من عهد أسرة كاي باو (سنة 968 م) إلى السنة الرابعة من عصر تسيان داو سنة (1168) م⁽²⁾. ويمكن تصور طبيعة البعثات العربية للصين آنذاك، فقد كانت دينية تدعو حكام الصين للدخول في الدين الحنيف، ومن تمّ كان الإعجاب باللغة العربية وازدهر تعليمها في الصين، خاصة من خلال المساجد، التي تحوّلت إلى مراكز، أو معاهد لتعليم لغة الضاد. وكانت بذاك أولى خطوات الاستعراب في الصين.

¹ . يانغ هوايتشونغ ويو تشنقوي: الإسلام والثقافة الصينية ، دار النشر لأهل نينغ شيا، 1995، ص 48 – 52.

² . باي شوي: المخطوطات لتاريخ الإسلام الصيني ، دار النشر لأهل نينغ شيا، 1982، ص 128.

وتعكس حالياً، العلاقات بين الصين والعرب أهمية الحركة الاستعرابية ومدى تجاوب الصينيين مع مسارها وتمثيلها في مختلف المجالات، إذ تشهد الجامعات الصينية مساحة واسعة للاستعراب انطلاقاً من تخصيص أقسام اللغة العربية وعلومها، فبعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية في العام 1949، وبالتوازي مع تطوّر العلاقات بين الصين الشعبية والدول العربية، أنشأت الحكومة، تخصّص اللغة العربية في جامعات ومعاهد عدّة، منها معهد الشؤون الدبلوماسية، وجامعة الاقتصاد والتجارة الخارجية، وجامعة الدراسات الأجنبية في بكين، والمعهد العسكري للغات الأجنبية في لويانغ، ومعهد العلوم الإسلامية الصيني، وجامعة الدراسات الدولية في شانغهاي، ومعهد اللغات في بكين، والمعهد الثاني للغات الأجنبية في بكين. وقد أعدت هذه الجامعات والمعاهد، آفاقاً من الأكفاء، الذين يعملون في مجالات الشؤون الخارجية والتجارة والاقتصاد والإعلام والتعليم والبحوث العلمية والشؤون العسكرية وغيرها، وقد ساهم هؤلاء مساهمة عظيمة في تطوير تطوير العلاقات الصينية – العربية، ومنهم وزراء، وسفراء، وجنرالات، وأساتذة، ومدراء شركات، وإعلاميون ورجال دين.

ولم تتوقف مظاهر الاستعراب عند التعليم الكلاسيكي، إنما امتدت إلى الترجمة كآلية لتوسيع التبادل الحضاري والثقافي المنشود، فمنذ تسعينيات القرن العشرين، ومع تطوّر الاقتصاد الصيني، وزيادة الانفتاح على العالم الخارجي، كثر التبادل الاقتصادي والتجاري بين المناطق الصينية المختلفة والدول العربية، فبدأت بعض المقاطعات الصينية تهتم بإعداد مترجمين للغة العربية. ونتيجة لذلك، تمّ إنشاء قسم تخصّص اللغة العربية في خمس جامعات إقليمية، ومعظمها في المناطق الواقعة غرب الصين، حيث يتكثّف وجود القوميات المسلمة.

كما تمّ إنشاء "مجمع اللغة العربية في الصين للتعليم والدراسات" في العام 1985، والذي انضمت إليه مختلف الجامعات، التي تدرّس اللغة العربية. وينظّم المجمع سنوياً فعاليات متعلقة بتعليم اللغة العربية، كعقد دورات، وندوات علمية، وإقامة مسابقات الخطابة، أو الإنشاء، أو الترجمة، أو العرض الفني بين طلبة الجامعات. ويتجسد الاستثمار اللغوي للعربية، بسعي الصين مؤخراً لوضع برنامج تنفيذي على مستوى وزارة التعليم يقضي بخلق فرص التوظيف لطلاب اللغة العربية في الصين، وكذا لاستحداث مناصب شغل على المستوى الخارجي ولاسيّما في بعض الجامعات المهمة من الدول العربية.

أما في الإعلام، فقد تم في شهر مارس 2009 افتتاح المركز الإعلامي العربي في بكين والذي يهدف لتوسيع التبادلات الشعبية والثقافية، وتعزيز التعاون بين الدول العربية والصين في شتى المجالات، وهو تابع للمركز العربي للمعلومات الذي أنشأه أحد العرب المقيمين في الصين. ويستخدم الإعلام الصيني وسائل موزعة بين:

- **البث التلفزيوني**: حيث تم إطلاق القناة العربية الدولية التابعة لتلفزيون الصين المركزي رسمياً في اليوم الـ 25 من يوليو عام 2009 وعلى مدار 24 ساعة يومياً. تغطي القناة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا من خلال قمري عربسات ونايلسات. مايعني الاهتمام بالقضايا العربية باعتماد ثقافة الصورة، وهو انتقال للاستعراب من البحث الورقي إلى التكنولوجي المعاصر. ولعل أهم ما يمثل الحوار الحضاري الذي يسعى إليه الاستعراب المعاصر هو تلك النافذة المشتركة المفتوحة على العالمين الصيني والعربي، بفريق عمل من المذيعين العرب والصينيين الذين يتحدثون العربية، والبرامج التي تستضيف الخبراء من الطرفين في النقاش حول القضايا السياسية والاقتصادية والثقافية لتعزيز سبل التفاهم والتبادل بين الصين والعالم العربي، مثل برنامج حوار⁽¹⁾.

- **البث الإذاعي**: - تأسس القسم العربي بإذاعة الصين الدولية في اليوم الثالث من نوفمبر عام 1957 ، واختلفت أزمنة البث من ثلاثين دقيقة لحصة الواحدة إلى ساعة واحدة مرتين يومياً في عام 1959 وتوسعت مضاميتها في المقابل. وفي عام 1981 ازدادت ساعات البث إلى ثلاث ساعات يومياً. وفي 28 مارس عام 1999 أطلقت إذاعة الصين الدولية برنامجها العربي الداخلي في قناة FM88.7 على نطاق بكين عاصمة الصين وتبث ساعة واحدة كل يوم. واستحدثت موجات البث الموجهة إلى الدول العربية وأوقاته⁽²⁾. ناهيك عن بقية الأصناف الإعلامية مثل وكالات الأنباء والصحف اليومية و الجرائد الإلكترونية والورقية السياسية والاقتصادية، داخل الصين وخارجها.

ب/ المخطوطات العربية والإحياء المعرفي في روسيا:

إن بداية المعرفة الواسعة للشرق العربي في روسيا ترتبط بالقرن الثامن عشر الذي تمخض عن اهتمام ملحوظ بالعرب، وأذن ببداية مرحلة جديدة في العلاقة به، والتي يمكن أن نصفها بالعلاقة الواعية(المنهجية)، فقد اتسمت هذه العلاقة بالسعي للتعرف على الشرق ومحاولة فهمه ودراسته ، وقد ارتبطت المحاولات الأولى لميلاد الاستعراب⁽³⁾ في روسيا بالربع الأول من القرن الثامن عشر، بناء على مبادرة من القيصر بطرس الأكبر الذي أمر بنسخ بقايا الكتابات العربية المحفوظة في مدينة بولغار. وهي

¹. للاستزادة ينظر موقع البث المباشر للقناة على الرابط <http://arabic.cntv.cn/01/index.shtml>

². ينظر الرابط:

[/http://arabic.cri.cn](http://arabic.cri.cn)

³. جهاد صالح: روسيا وفلسطين، العلاقات الروحية و التربوية والثقافية منذ ق19 وحتى بداية ق20. ط1، المركز الفلسطيني للدراسات والنشر والإعلام. 2006. ص160 وما بعدها.

مدينة اعتنق سكانها الإسلام عام 922 م. ومن الواضح أن عملية نشر هذه الكتابات لعبت دوراً هاماً في تطوير الاستعراب الروسي في تلك الفترة، حين تأسست "أكاديمية العلوم الروسية"، في بطرسبورغ سنة 1724 التي كان لها فضل الإشراف على إصدار الدوريات التي تُعنى وتعرّف بالشرق والعرب خاصة، ومع ظهور هذه المؤسسة العلمية ظهرت في روسيا بداية "الاستعراب" بطبيعته العلمية 1796م. وقبل ذلك، بذلت القيصرة كاترينا الثانية 1762م محاولات لتدريس العربية في المناطق الإسلامية الخاضعة للإمبراطورية الروسية، وقد اضطلعت بهذا الدور المدرسة المتوسطة في مدينتي "قازان" و "استرخان".

ومهما يكن من أمر، فإن فكرة إرساء مدرسة الاستعراب العلمي بالنسبة للقرن الثامن عشر بقيت مجرد حلم راود أفضل عقول أبناء روسيا، وعلى رأسهم العالم الشهير "لومونوسوف" الذي اقترن اسمه بفكرة تأسيس أكاديمية علمية تكون اللغات الشرقية من بين التخصصات الأساسية فيها، وبخاصة اللغة العربية التي أولع بها وبثقافتها وأدبها. ويكون من نصيب القرن التاسع عشر تحقيق هذا الحلم، ويصبح موضوع الاستعراب مجالاً واسعاً، على إثر تطبيق النظام الجامعي (أو ميثاق الجامعات)، والذي صدر في عام 1804، حيث أدرج في هذا النظام تعليم اللغات السامية: العربية والفارسية والتركية والمغولية... وغيرها في مناهج المعاهد العليا. وتطبيقاً لهذا النظام (الميثاق)، دُرست اللغة العربية في جامعة خاركوف منذ عام 1805، وفي جامعة قازان منذ عام 1807 وفي جامعة موسكو منذ عام 1811 م، وفي جامعة بطرسبورغ منذ عام 1819 م.

فمنذ السنوات الأولى من القرن التاسع عشر حظيت العلوم الإنسانية العربية (بعد صدور الميثاق الجامعي) بمكان بارز في أكاديمية العلوم والجامعات الروسية. أما في نهاية القرن التاسع عشر فقد نهجت الدراسات العربية فيها نهجاً علمياً صرفاً حتى قيام ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى. وقد خلف العلماء والمؤرخون والفنانون من المستعربين الروس دراسات واسعة ذات قيم كبرى حول الشرق والعرب، وعلاقات روسيا بهما، وأصبحت اللغة العربية تلقى اهتماماً متزايداً من الجامعات الروسية، الأمر الذي ساهم في نشر الثقافة العربية بين الجماهير الواسعة في المجتمع الروسي. ولعل من أهم المراكز الثقافية الروسية التي تحمل في روفها أكبر ميراث للمخطوطات العربية:

- معهد الدراسات الشرقية لأكاديمية العلوم الروسية.⁽¹⁾

- معهد المخطوطات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم الروسية.⁽²⁾

¹ <http://www.ivran.ru>.

² <http://www.orientalstudies.ru>.

- معهد بلدان آسيا وأفريقيا التابع لجامعة موسكو.⁽¹⁾

تعمل هذه المراكز على إثراء الثقافة العربية بإعادة تحقيق المخطوطات التي شملتها والتي تحيي من خلالها الإرث العربي القديم في مجالات العلوم والرياضيات والطب والجغرافيا وغيرها. جدير بالذكر أن الاستعراب الروسي اكتسب هو الآخر سمات استمدها من السياقات الخاصة التي مر بها، ترجع أساسا إلى الطرق التي انتهجها. فالموضوعية في النظر إلى ثقافات الشعوب العربية والإسلامية نظرة مساواة هي المنهج الأول، ترسبت من التماس المباشر بمصادر الإحاطة بعلوم العرب، فالرحلات العلمية المتبادلة بين الأساتذة و العلماء من الطرفين مثلا دعمت علمية الاستعراب الروسي وحسن استثماره للغة العربية وثقافتها للفائدة المتبادلة، فتواجد العرب في فترة مهمة وعلى رأسهم عياد الطنطاوي في المعاهد الروسية لتدريس العربية والمؤلفات التعليمية وغير التعليمية التي قاموا بنشرها⁽²⁾، وكذا الترجمة من العربية إلى الروسية، ثم تأليفهم الكتب عن الحياة في البلاد التي استقدموا إليها ساهم في إثراء الثقافة الروسية في البيئة العربية. كما أن وجودهم قد ساهم في تكريس صورة العربي الحقيقية ولغتهم في وعي الروسيين بأقل من الأخطاء التي تشوب الدراسات، والمغالطات التي ارتكبت خلال حركة الاستعراب المنشقة عن الاستشراق الأوروبي. ضف إلى تلك السمات، الأسس الراسخة في الاستعراب الروسي التي تتجنب الإزدراء الثقافي فلا تستند إلى وصاية أو هيمنة.

لا تكفي الصفحات المتاحة للإمام بمشارب الموضوع الباقية المهمة، والتي تحتل فيها الدراسات الاستعرابية الأسبانية التي تنجزها المؤسسات الحكومية أو تلك التي يبذلها أفراد معينون، والمتعلقة بمقاربة القضايا العربية ليس فقط على مستوى النخبة المثقفة كما كان الحال في البدايات الأولى للاستعراب الإسباني، ولكن على مستوى الشعب، مما سجل انتقالا نوعيا في هذه الحركة في الأندلس وما جاورها، وكذا مواطن الاستعراب الأفريقي التي ضربت بعض نماذجها مثلا لمستوى عالي من الاستثمار خاصة في نيجيريا والتشاد، و الآخر الذي صنعه الاستعراب الياباني في استخدام اللغة العربية في المنتج التقني بهدف تفعيل الجانب الاقتصادي ومجالات التعاون بينه وبين العرب. وهي نماذج لها الدور الكبير في تحويل الاتجاه نحو الاستثمار في اللغة العربية إذا أراد الهرب ذلك. في السنة الماضية استقبل مركز الملك فيصل للدراسات الإسلامية وفدا من المستعربين الصينيين بهدف دراسة مفهوم للاستعراب الآسيوي وتحديده والاتفاق على اتجاهاته وآلياته ومجالاته وذلك في إطار ما تفرضه علاقات التعاون والشراكة الاقتصادية، فكان أن طلب أحد المداخلين الصينيين أن تكون هذه من مهام العرب لأن

¹ <http://www.iaas.msu.ru>

² كراتشكوفسكي: مع المخطوطات العربية. صفحات الذكريات عن الكتب والناس. ترجمة فرالوفا. 1993. ص222.

القضية تخص العرب بالدرجة الأولى. وفحوى ذلك أن للعرب القدرة على توجيه هذه الحركة في سياقها المعاصر إلى ما يخدم الكيان العربي و لغته الحضارية.

وختاماً، سعت هذه الورقة البحثية إلى إضاءة جانب مهم من الاستعراب، رغم ما تشوبه من تهم من بعض المفكرين، غير أن ما يمكن الخروج به هو خصائص الانفتاح التي تتيح للعربي إمكانية استغلاله في الاتجاه الإيجابي للمعمورة العربية في مجالات مختلفة. وخاصة في المجال الاقتصادي والتقني، عاللة العربية تستوعب النظريات الحاضرة للمنجز الاقتصادي مثلما تأتي لها أن حضنت المنجز الفكري و العلمي في عصور خلت قبل أن ينتقل إلى الحاضرة الغربية. فبإمكان العرب استعادة مجدهم وصناعة أمجاد أخرى لا تنير إلا ذلك النور الذي تركه الأسلاف في سابق عهدهم.

قائمة المصادر والمراجع:

المعاجم والموسوعات:

1. تاج العروس .
2. القاموس المحيط.
3. لسان العرب
4. المصباح المنير.
5. معجم معاني كلام العرب/ج4.
6. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة.

الكتب العربية والمترجمة:

1. باي شويي: المخطوطات لتاريخ الإسلام الصيني ، دار النشر لأهل نينغ شيا، 1982.
2. جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، مراجعة الدكتور شوقي ضيف ، دار الهلال ، الجزء الأول.
3. جهاد صالح: روسيا وفلسطين، العلاقات الروحية و التربوية والثقافية منذ ق19 وحتى بداية ق20. ط1، المركز الفلسطيني للدراسات والنشر والإعلام.2006. ص160 وما بعدها.
4. زكريا زكريا هاشم: فضل الحضارة الإسلامية العربية على العالم. دار النهضة مصر 1970.

5. كراتشكوفسكي: مع المخطوطات العربية . صفحات الذكريات عن الكتب والناس. ترجمة فرالوفا. 1993.
6. محمود شكري الأوسي. بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج1 ، الطبعة الثانية ، 1924م
7. نوفل عبدالرزاق (المسلمون والعلم الحديث) بيروت 1973.
8. يانغ هوايتشونغ ويو تشنقوي: الإسلام والثقافة الصينية ، دار النشر لأهل نينغ شيا، 1995.

الروابط الالكترونية:

<http://www.iaas.msu.ru> .

<http://www.ivran.ru>.

<http://arabic.cntv.cn/01/index.shtml>

[/http://arabic.cri.cn](http://arabic.cri.cn)

<http://www.orientalstudies.ru>.